عادل الأسطة

اليهود في الرواية العربية

" جدل الذات والآخر "

2005

فهرس المحتويات

- تمهيد.
- اليهود في رواية عبد الرحمن منيف " أرض السواد "
- سؤال الذات في رواية ممدوح عدوان " أعدائي ".
- اليهود في رواية " أعدائي ".
- اليهود في روايات إلياس خوري.
- اليهود في مسلسل الشتات ".
- الديوث اليهودي: هل هو اختراع عربي؟
- الذات والآخر في رواية كنفاني " عائد إلى حيفا ".
- ملاحظات حول اليهود في الرواية الفلسطينية.

تصدير

هذه دراسات ومقالات أنجزتها حول صورة اليهود في نصوص روائية عربية معاصرة. ويعود سبب جمعها في كتاب إلى اهتمام الجامعات العربية ومراكز البحوث في العالم العربي بهذا الموضوع، اهتماماً بدا في السنوات الأخيرة لافتاً. فما من مؤتمر تعقده هذه الجامعة أو تلك، في كليات الآداب، يتمحور حول حوار الحضارات أو حوار الثقافات أو حوار القارات، إلا وكانت الكتابة حول صورة الذات والآخر في الأعمال الأدبية محوراً بارزاً من محاوره.

وقد أصدرت بعض مراكز الدراسات العربية، وأخص بالذكر هنا مركز دراسات الوحدة العربية، العديد من الدراسات حول صورة الآخر وصورة الذات، مثل صورة العربي في المناهج الفرنسية، أو صورته في الإعلام الألماني، أو صورة العرب لدى الأتراك، أو صورة الأتراك لدى العرب.

ولعل أضخم هذه الدراسات تتمثل في كتاب " صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه " (1999) الذي حرره الطاهر لبيب.

ولم تقتصر الكتابة على التأليف، إذ عكف مترجمون على ترجمة كتب ودراسات أنجزها مؤلفون غربيون، أبرزها الكتب التي تناولت صورة العربي في الأدب العبري، وهي كتب صدرت بالإنجليزية، مثل كتاب (ريزا دومب) وكتاب (جيلا رامراس راوخ)، وقد صدر الأول في الأردن وصدر الثاني في القاهرة. ومنها أيضاً الدراسات التي كتبت بلغات أخرى في الموضوع نفسه، مثل دراسة الألمانية (أوتي بوهايمر) التي نشرت في رام الله على صفحات جريدة الأيام (1996).

وكان هناك دارسون عرب وغربيون التفتوا إلى هذا الموضوع في أوساط السبعينيات (من ق 20)، وكتبوا عن صورة اليهود في الأدب العربي، ونشروا دراساتهم بالانجليزية في مجلات تصدر في أمريكا، أبرزها مجلة العربية (1978). وما زالت الكتابة في هذا الموضوع، حتى هذه اللحظة، تلفت الأنظار.

كتب الدارسون العرب عن صورة اليهود في الأدب العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى أوساط القرن العشرين. وكتبوا أيضاً، كما كتب دارسون غربيون، عن صورة الأوروبي في الأدب العربي، بخاصة في أعمال الرواد (توفيق الحكيم، يحيى حقي، سهيل ادريس، الطيب صالح)، وأبرز هؤلاء الدارسين جورج طرابيشي و (روتراود فيلاندت) وحليم بركات ويوسف الشويري ورشاد الشامي. ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء كتاب آخرون أنجزوا دراسات قصيرة نشرت في كتب صدرت عن مؤتمرات جامعية هنا وهناك، في عمان وفي دمشق وفي بيروت وفي القاهرة.

وإذا كانت الكتابة عن اليهود برزت في كتابات كتاب عرب، فإنها منذ بداية المشكلة الفلسطينية، مع صدور وعد بلفور، بدأت تبرز بشكل لافت ومكثف في كتابات الأدباء الفلسطينيين. بدأت في الشعر منذ 1913، وفي النثر منذ 1920 تاريخ صدور أول رواية فلسطينية لخليل بيدس. ومنذ ذلك العام بدأت الكتابات تتوالى، لتبرز في الأدب الفلسطيني أكثر من ظهورها في الأدب العربي. وكان هذا ما حثني على إنجاز دراسة علمية حول صورة اليهود في الأدب الفلسطيني، بعد أن كنت قررت أن أكتب عن صورتهم في الأدب العربي.

وإذا كان هناك أدباء عرب أبرزوا فيما كتبوا شخصيات يهودية، بعد قيام دولة إسرائيل، وكتبوا عن يهود عرب، ومن أبرز هؤلاء الروائي المصري إحسان عبد القدوس، فإن كتاباً آخرين بارزين، مثل نجيب محفوظ، لم يبرزوا في أعمالهم شخصيات يهودية، بل إن أعمالهم قلما حفلت بشخصيات فلسطينية. ولم ألتفت، شخصياً، إلى

دراسة لافتة أنجزت حول النصوص العربية الصادرة بين (1950–1990) تتناول شخصية اليهودي في الرواية العربية. ولعل الدراسة الوحيدة هي تلك التي أنجزها الدكتور المصري رشاد الشامي تحت عنوان " الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس " (القاهرة، 1992).

والتفت، وأنا أقرأ روايات عربية (صدرت في العقد الأخير من ق 20) إلى أن مؤلفيها أظهروا فيها شخصيات يهودية، ومن أبرز المؤلفين إلياس خوري اللبناني، وعبد الرحمن منيف النجدي، وممدوح عدوان السوري، وزياد قاسم الأردني. بالإضافة إلى كتاب آخرين مثل جاسم المطير وأمين معلوف وفوزية شويش السالم. وكان أن أنجزت عن أكثرها دراسات هي التي يضمها هذا الكتاب.

ولا تقتصر الكتابة هنا على كتاب عرب، إذ يضم بين ثناياه دراستين أولاهما تحت عنوان " الديوث اليهودي: هل هو اختراع عربي؟ " وثانيتهما تحت عنوان " صورة الذات والآخر في رواية غسان كنفاني " عائد إلى حيفا " على ضوء صورتهم في رواية الكاتب الأمريكي الصهيوني (ليون أوريس) " أكسودس ". استعرضت في الأولى فكرة الديوث اليهودي في نصوص فلسطينية، وبحثت عنها في نصوص عبرية نقلت إلى العربية، مثل رواية الكاتب الإسرائيلي (أ.ب. يهوشع) " العاشق "، وهي فكرة تتكرر في رواية ممدوح عدوان " أعدائي " وفي رواية عبد الرحمن منيف " أرض السواد "، وإن اختلف التصوير واختلفت المعالجة. بل إن هذه الفكرة تبرز بوضوح في مسلسل الشتات الذي عرضته فضائية المنار اللبنانية في رمضان من العام 2003، وذهب المشرفون على الفضائية وكاتبو المسلسل إلى أنهم، في كتابتهم، اعتمدوا على مصادر ومراجع يهودية وصهيونية. وفيه – أي في المسلسل – بدت صورة الديوث أوضح ما تكون. ولعل ما كتب عن هذه النصوص وعن المسلسل ما يتمم ما ورد في دراسة " الديوث اليهودي: هل هو اختراع عربي ؟ " وهي دراسة أنجزت قبل فترة من صدور الروايات وعرض المسلسل.

وبينت في الدراسة الثانية كيف أن تشكل الذات والآخر في الأدب الفلسطيني – ويمكن القول في الأدب العربي، وهذا ما يبدو جلياً في رواية ممدوح عدوان – تمَّ بعد قراءة مؤلفي الروايات العربية، روايات أدبية صهيونية أنجزت بالعبرية أو بالإنجليزية أو بالألمانية. وكنت عالجت هذا، مطولاً، في كتاب أصدرته عام 1993 تحت عنوان " الأديب الفلسطيني والأدب الصهيوني "، وبإيجاز في كتاب " اليهود في الأدب الفلسطيني بين 1913 و 1987.

وبدا لي أن كثيراً من نصوص كتابنا أنجزت بعد قراءة مؤلفيها روايات صهيونية أو نصوصاً صهيونية، ورمى الأدباء الفلسطينيون والعرب، من وراء كتابتهم، إلى دحض الفكر الصهيوني. لقد بدا هذا واضحاً في بعض كتابات غسان كنفاني ومعين بسيسو ومحمود درويش وأفنان القاسم وممدوح عدوان، وكان رائد هؤلاء، في هذا، الشاعر إبراهيم طوقان الذي كتب أول نص شعري يرد فيه على شاعر يهودي في العصر الحديث، هو نص " في الرد على رئوبين شاعر اليهود ".

ويجدر أن أشير هنا، إلى أن أغلب الكتاب الذين أنجزوا نصوصاً تناولت اليهود، هم كتاب ذوو توجه يساري ماركسي. ولا يعني هذا بأنهم كلهم على هذه الشاكلة، فثمة من يختلف عنهم في هذا الجانب، ولعل مسلسل " الشتات " الذي بثته المنار التابعة لحزب الله اللبناني خير دليل على ما أذهب إليه. يظهر لنا المسلسل أن التيار الإسلامي له رأيه أيضاً في هذا الجانب، وإن كان المرء، في النهاية، يلحظ أنْ ليس ثمة اختلاف كبير بين رؤية اليمين واليسار في الكتابة عن اليهود، وأن كتابة التيارين عنهم وتصويرهم في أعمالهم الأدبية ومسلسلاتهم التلفازية يخرج من مقولة هي: لسنا ضد اليهود، وإنما نحن ضد الصهيونية التي لم نكن نحن العرب ضحاياها، وإنما كان اليهود أيضاً ضحاياها، ودفع قسم منهم ثمناً باهظاً لمشروعها ولسياستها، وهي مقولة برزت

أيضاً، من قبل، في نصوص كتاب الستينيات من ق 20، وهو ما أوضحته في كتابي " اليهود في الأدب الفلسطيني ".

والكتاب العرب الذين عالجت نصوصهم كتاب بارزون جداً، ونصوصهم مقروءة جيداً، ومعروفة على مستوى الوطن العربي.

لعل هذا الكتاب يكون متمماً لدراسات آخرى أنجزها دارسون عرب في الموضوع، ولعله أيضاً يعطي صورة عن صورة اليهود في النصوص الروائية العربية الصادرة في العقد الأخير من القرن العشرين على ضوء صورتهم في الأدب العالمي والأدب العربي القديم منذ فجر الإسلام.

المؤلف عادل الأسطة

نابلس 2004/2/19